حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به . العدد الثاني . شهر رمضان ١٤٣٣هـ / آب . ٢٠١٢م

٢

مرقد الشهيد مسلم بن عقيل عليه السلام سنة ١٩٣٥م

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

التخطيط الحضري لمدينة الكوفة
(جولة ميدانية)

الدكتور محمود شاكر عبود الخفاجي
الجامعة الإسلامية النجف الاشرف

المقدمة:

هذه جولة ميدانية حية تخلو من مصادر البحث ولا تعتمد على ما دون من وثائق التاريخ. استعرضنا فيها التخطيط الحضري لمدينة الكوفة الغراء تلك العاصمة الثانية للحضارة الإسلامية، والحاضرة التي بدأ منها التاريخ ينطق، والفلسفة تسمو والنحو ينشأ والعقل ينظر، ولم تهزها عواصف الجمود ولا مخلفات التحجر، وإنما نظرت إلى التراث أصالة وإلى الحداثة منهجاً، فحاكى الماضي حاضرها وانطلق الحاضر من أصالتها.

والتخطيط الحضري يحاكي بعض ذلك، في انتمائها العربي، وطرازه الإسلامي، فطفت في أزقتها -مع معرفتي السابقة لها كوني لم أبتعد كثيراً عنها- استقريء والاحظ وأدون مشاهدات حية لتكون أصدق للتاريخ، وأقرب للواقع. أسال من هذا وأتنقب عن ذاك وأعرض الأجوبة على العين كي تميز الحق من الزيف، وتفرق بين المبالغة والحقيقة، فجاءت بهذه الحلة لعلي أحظى بقبس من الوفاء لهذه الحاضرة التي لا يمكن للتراث الإسلامي أن يستغني عن الجهود التي بذلتها في كل تفرعاته وعلومه، ولا أدعي الكمال في هذا، فالباب مفتوح للطلب والوغول وأنهي حديثي كما بدأته بالحمد والثناء لله رب العالمين.

العوامل الطبيعية لنشأة وتطور مدينة الكوفة:

١- **الموقع**: تقع مدينة الكوفة على الجانب الغربي لنهر الفرات، ومناخها معتدل الهواء وذلك لتأثير النهر والبساتين المحيطة بها، باعتدال مناخها صيفاً، وشدة الرطوبة تؤثر بدفئه شتاءاً.

وتختلف مدينة الكوفة من حيث موقعها عن المدن العربية الأخرى في أنها ذات موقع ليس برياً، حيث أن الأمر الطبيعي في المدن العربية القديمة الأخرى أنها تمتاز بمواقعها البرية.

فالكوفة واحة غناء بعد مسافات شاسعة من الصحاري الواسعة الممتدة جنوبها حتى اليمن، وقد منحها موقعها هذا أهمية عسكرية ربما كان الداعي الأولى لإنشائها.

وقد مرت الكوفة بعدة مراحل من حيث أهميتها فيما إذا قيست بالمدن العربية الكبرى، فبالإضافة إلى قربها من الصحراء وقتذاك فقد كانت ملتقى طرق التجارة بين الجزيرة العربية وبلاد فارس من جهة، وبين بلاد الشام وبلدان الخليج العربي من جهة أخرى.. وإن لتطورات السياسية التي مرت بها هذه المدينة أولتها أهمية أخرى جعلتها تتطور وتزداد تطوراً على مرور الزمن وتقلب مراحله، فاتخاذها عاصمة للدولة الإسلامية في عصر الإمام علي(عليه السلام)، ثم التفتح العلمي والمدارس العلمية في القرن الأول والثاني الهجري وبعدها، وتطور العلوم في مدارسها الشهيرة، من نحو وفقه وحديث وعلوم أخرى جعل الكوفة تحتل المكان الأول وتصبح محجة للعلم والعلماء، إذ لا يستطيع عالمٌ أو دارسٌ أن يستغني عنها يومذاك.

ومن جملة الأسباب التي منحتها تلك الأهمية: مركزها الديني، فمنذ استشهاد الإمام علي(عليه السلام) عام ٤٠هـ وبعض الصحابة والتابعين ومراقدهم وجامعها الذي يعد رابع مسجد في الإسلام، أضف إليها المعالم الأثرية المندرسة من تلك الحقب الزمنية والتي بقيت معالمها شاخصة إلى يومنا هذا كل ذلك أكسبها أهمية أكثر، فلهذا وذاك تعد الكوفة من المراكز الدينية الأولى في العراق وتحتل السياحة الدينية الموقع الأول بالنسبة لها اليوم.

٢- **العامل العسكري**: ويعد هذا العامل الأول والأهم من عوامل التاسيس وهو الذي دعا الصحابي (سعد بن أبي وقاص) أن يختارها مقراً خلفياً لقواته في معارك الفتوح الإسلامية الأولى، لما يحيط بها من حصون منيعة طبيعية متكونة من شقي نهر الفرات، اللذين يشكلان عائقين مهمين لتقدم جيوش الفرس آنذاك.

هذا من جهة ومن جهة أخرى اتصالها بالقبائل العربية القاطنة بالحيرة وشمال الجزيرة العربية، فكانت مركزاً عسكرياً مهماً لتمويل الجيش العربي الإسلامي وقتذاك والمنطلق بفتوحاته نحو الشرق، فكان المتطوعون من القبائل العربية يتجمعون فيها لتكون مركزاً لانطلاقهم نحو الفتوحات، وبالنظر إلى اتصالها غرباً بالصحراء العربية وبالطريق الذي يصل العراق بالحجاز وموقعها على النهر الذي قلل على الجيش مشقة العناء بالبحث عن الماء والكلأ لهم ولأنعامهم، وهذان عاملان لا يقلان أهمية عن الحصون العسكرية للمدينة.

أما في الوقت الحاضر وبعد تطور وسائط النقل وأسلحة الحرب فقد أصبح هذا العامل لا يعد ذا أهمية تذكرة بالنسبة لمدينة الكوفة كما هو لغيرها من المدن الأخرى.

٣- **العامل السياسي (الإداري)**: في عام ٣٦هـ اتخذ الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) الكوفة عاصمة للخلافة الإسلامية، مما أضفى عليها مركزاً.

إدارياً وسياسياً احتلت به الكفة الصدارة على جميع المدن الإسلامية الأخرى. وبهذا العامل أصبت الكوفة مدينة بعد أن كانت حامية للجيش -ربما أفل نجمها عند مغادرة الجيش لها من مكان آخر-وهذا الأمر بدوره طور معالم المدينة الحضرية فوسع جامعها الكبير وتحركت مصادر التجارة فيها، واتسعت مساحاتها الجغرافية، وتشعبت مسالك الطرق البرية إليها والمتصلة بها.

وما إن خبت شعلة هذا العامل حتى تباطأت مسرة التطور فيها، ولكن طبيعة معظم سكانها العسكرية جعلها مركزاً للحركات المناهضة للدولة الأموية أو السلطات الحاكمة عليها، وعلى هذا بقي للكوفة مركز الاهتمام الأول عند الدولة دون باقي الأمصار.

فكانت شبه عاصمة للأمصار القريبة منها، وكان يختار لها أكفا الولاة وأصرمهم، ويكون إليها مسؤولاً عن الولاة البصرة وخراسان. واتخذها العباسيون عاصمة لهم بضع سنين قبل أن يبني أبو جعفر بغداد ويتخذها عاصمة له في ١٤٥هـ.

وما أن تغيرت وسائل الدول للسيطرة على مدنها وتصاغر حجم الدولة العربية حتى تضاءَل دور هذا العامل تدريجياً هو الآخر وأصبح ليس ذا بال، وأمست الكوفة ناحية ومن ثم قضاء يغفو على شاطئ الفرات. لا تختلف أهميتها الإدارية عن غيرها من أقضية العراق الإدارية، ولعلنا لا نجانب الحقيقة بقولنا أن ذلك كان بقصد لا يخلو من سوء النوايا.

٤- **عامل النقل والمواصلات**: ان موضع الكوفة الطبيعي أكسبها أهمية غير عادية قديماً بالنسبة لطرق القوافل البرية، وقد تطور هذا العامل بعد تطور وسائط النقل، حيث استعملت الطرق النهرية، فكان للكوفة أهمية عظمى -إن لم تكن أهم المحطات- للسفن المتجهة نحو البصرة والخليج عبر الفرات، فهي تربط بلاد الشام بالخليج العربي وخراسان أيضاً، وبالعكس. وكانت إلى وقت قريب -قبل توسع الطرق البرية- هي كذلك.

وهذا العامل أثر وبشكل مباشر بالحالة الاقتصادية لسكان الكوفة وبالتخطيط العمراني للمدينة، إذا لا تزال صناعة القوارب النهرية وما تحتاجه هذه الصناعة من مهن ماثل قسم منه إلى الآن.

وعند تطور وسائط النقل واندراس النهرية منها في العراق، لم يبق لهذا العامل ذلك المكان وتلك الأهمية في الكوفة، وإنما اقتصرت أن تكون ممراً يربط مدينة النجف وضواحيها بالمدن الشمالية الأخرى، لكون الكوفة تضم الجسر الوحيد الذي يربط النجف بتلك المدن. وبعد افتتاح جسر الكفل والجسر الجنوبي الجديد المقابل لمعمل الإسمنت فيها، تضاءَل هذا العامل إلى درجة كبيرة بحيث انعزلت الكوفة تماماً عن باقي المدن من حيث النقل، حتى أصبح المسافر إليها من بغداد لا يستطيع أن يذهب إليها أو يسافر منها مباشرة إلا عن طريق النجف.

ومن هنا لا يمكن إهمال أثر هذا العامل على الكوفة - سلباً أو إيجاباً- من عملية الإعمار في شق الشوارع وتعبيدها وتنظيم الساحات الرئيسية أو الفرعية، فلقد بنيت على جانبي الشارع الرئيسي الذي يربطها بمدينة النجف العمارات والمحلات التجارية وتجملت ديكوراتها حتى أصبح لهذا الشارع الأهمية التجارية الأولى في المدينة وفي النجف أيضاً. ومن جهة أخرى كان آفة التهمت بعض المعالم الأثرية القديمة للكوفة والتي تقع على هذا الشارع وما يحيط به.

٥- **العامل الديني**: يلعب هذا العامل دوراً بارزاً ومهماً وملحوظاً بتطور الكوفة يكاد يكون الأول في الوقت الحاضر وهو العامل الوحيد الذي لا يخبو ولا يتضائل دوره، أضف إلى ذلك قربها من مدينة النجف التي تعد المدينة الدينية العالمية بالدرجة الأولى، بحيث اندمجت المدينتان معاً مكونتين مدينة واحدة.

أما تاثير هذا العامل على التخطيط الحضري لمدينة الكوفة ومعالمها المعمارية فبارز جداً، حيث مرقد الشهيد مسلم بن عقيل بن أبي طالب(رضي الله عنه) بقبته الذهبية المميزة ومسجد الكوفة بمنارته الذهبية الإسلامية العريقة، ومرقد الصحابي ميثم بن يحيى التمار(رضي الله عنه) ومسجد السهلة ومقاماته الشهيرة ثم مقام النبي يونس(عليه السلام) والآثار الباقية من بين الإمام علي(عليه السلام) الذي كان يسكنه والذي يعود تأريخه إلى القرن الأول الهجري وإلى النصف الأول منه بغرفه ودهاليزه وبنائه الطيني وبئره العريق والذي يعطيك صورة حية مفصلة عن طراز البيوت العربية الأولى، ويحكي لك زهد ذلك الخليفة العظيم ومظاهر الزهد للإسلام الحق وكيف كان قادته، وربما ينبئك عن أسباب التطور الحضاري لتلك الأمة،

وآثار قصر الإمارة بفخامته وطابوقه الكبير ومسانده الضخمة ودهاليزه وأطلاله ودور الجند فيه والذي يعيد المشاهد إلى طراز العمارة الإسلامية في القرون الهجرية الأولى ويضعك على مقارنة حية شاهدة للعيان بين حقب التاريخ الإسلامي بين عصر الخلافة الأولى وعصور الملك العضوض الذي غير الزهد إلى الترف من جانب، وبين عراقة هذه المدينة وأصالتها العربية والإسلامية، فيحدثك التاريخ عن حقائقه بحقبه المتعاقبة.

ولم يكتف العامل الديني بتأثيره على الكوفة قديماً، وإنما أثر على تخطيطها الحضري وبنائها المعماري على مر الزمن وبالأخص في أيامنا هذه. فقد تركت ساحات منظمة وحدائق مسيجة ومرافق عامة في مركز المدينة وفي أبرز مكان فيها، وما ذلك إلا لاستقبال زائري تلك العتبات المقدسة ولإيواء سياراتهم ولتقديم الخدمات لهم. وأما أثره على طراز البناء بكل مراحل تطوره فبارز في البيوت المبنية حديثاً والتي هي في دور البناء حالياً، فعندما تطل شبابيك الدار على شارع عام يوضع الزجاج المعتم والملون في الطبقات السفلى من الشبابيك لكي لا يطلع المارة على ما في داخل البيت.. وحتى العمارات والفنادق التي بنيت على جانبي الشارع الرئيسي العام من المدينة والتي خصصت كشقق سكنية أو لإسكان طالبات الجامعة لا تحتوي على (بلكونات) مطلة على الشارع ليقضي الطلبة فيها أوقاتهم، وإنما تشاهد ستائر سميكة وزجاجاً معتماً في أكثر تلك البنايات، وإن وجدت في بعضها (بلكونات) فتكاد تكون منعزلة تماماً عن البناية وكأنها وضعت لتساير الذوق أو لتوضع عليها مبردات الهواء أو لتمنع البيوت عن اتصالها بالشارع، وبعضها غير مرتبط بباب إلى داخل الغرف وإنما تطل عليها شبابيك كبيرة، وترى بعضهم قد نقش على الكاشي الكربلائي فيها آيات قرآنية مثل «هذا من فضل ربي» أو «ادخلوها بسلام آمنين». وعلى البعض الآخر وضعوا علامات زرقاء يظن أنها تعاويذ دينية تبعد عنهم شر الحاسدين.

ولا يستطيع باحث أن يهمل أهمية هذا العامل في الوقت الحاضر والذي يزداد تألقاً بالنسبة للمظاهر العمرانية لمدينة الكوفة وتخطيطها الحضري.

٦- **العامل الاقتصادي**: إن إنشاء معمل سمنت الكوفة بالدرجة الأولى ومعملي الأحذية الشعبية والمطاط فيها استقطب لمدينة الكوة أيد عاملة من غير سكانها الأصليين فاستوطنوها تبعاً لوسائل عيشهم، وهذا التوسعة في عدد السكان يؤدي بدوره إلى التوسعة في المساحة الجغرافية للمدينة والتوسعة في أسواقها تبعاً للحاجة. أضف إلى ذلك ما تحتاجه هذه المعامل لنقل إنتاجها من شاحنات كبيرة وسيارات ذات مواصفات خاصة لنقل الإسمنت إلى خارج المدينة، وهذا يدعو إلى إنشاء طرق وساحات تختلف عما تحتاجه السيارات الصغيرة مما أدى بصورة إيجابية إلى التأثير على العامل الاقتصادي لسكان المدينة إذ من الطبيعي أن يجدد السكان بيوتهم في حالة تحسن أوضاعهم المادية فينشئون ما يحتاجه سائقوا هذه السيارات والقادمون وعمال تلك المعامل من مطاعم ومقاهي للاستراحة وبالأخير يطور هذا بناء وإعمار المدينة، وما لبث هذا العامل أن قل تأثيره بعد إقامة الجسر الجديد القريب من هذه المعامل وفتح الطريق خارج المدينة والذي يربط المعامل بطريق بغداد الرئيسي، وإجبار سائقي هذه السيارات العبور خلاله ذهاباً وإياباً بسبب عدم تحمل الجسر القديم لمثل هذه السيارات. ومن البديهي أثر ذلك وبشكل ملحوظ على حركة العمل داخل المدينة وبشكل سلبي، ولكن افتتاح جامعة الكوفة وحاجة طلابها إلى الأقسام الداخلية من أجل سكناهم ساعد وبشكل كبير في تطور معالم المدينة المعمارية والحضرية فشيدت لذلك البنايات ذات الطوابق المتعددة والأشكال المختلفة. ولا يعزى هذا إلا إلى الحالة الاقتصادية البحته، لأن حاجة الطلاب الماسة إلى ذلك دعا أهل المدينة إلى تجنيد رؤوس أمواله وعقاراتهم على ذلك الغرض لتعود عليهم بالأرباح، أضف إلى ذلك ما يجب توافره من مطاعم وأسواق لإشباع رغبات هؤلاء الضيوف وتغطية حاجاتهم وبشكل ينسجم مع مستوى الطلاب الثقافي واختلاف أذواقهم والتي تتطلب (ديكورات) وإنارة وأحجام خاصة للمحلات تختلف عما هي عليه لاحتياجات أهل المدينة دون الغرباء، داعياً إلى ذلك التنافس في العمل الذي يستهوي الزبائن.

وهذا العامل الاقتصادي البحت نستطيع أن نستدل عليه في الأيام التي تتعطل فيها الدراسة، فإننا نلمس شبه هدوء ينتاب كل تلك البنايات والشوارع والمحلات..

٧- **العامل الاجتماعي**: أن موقع الكوفة بين الصحراء والمناطق الزراعية جعل العوامل الاجتماعية -اختلاط سكان الكوفة بهذين الطرازين من السكان الذين يتوافدون على المدينة -جعلها تؤثر تأثيراً لا ينكر في التخطيط الحضري والعمراني وعلى النحوين التالين:

١- **البدو**: فبالنظر إلى احتياج سكان البادية للمدينة لتصريف بضائعهم وإبدالها بأخرى يحتاجونها. فقد كانت وإلى عهد قريب جداً -نصف قرن من الآن- ترى الجمال في أماكن متفرقة من المدينة وترى سكان البادية بأزيائهم المتميزة يجوبون أسواقها للتبضع وقد انعكست هذه الظاهرة على الصناعات المنتشرة في المدينة، كصناعة «القرب» التي يحملون بها الماء على ظهور الإبل، و«الهوادج» وبيوت الشعر والخيام.

أما الآن فقد تقلصت هذه الصناعات بشكل كبير في النجف وانقرضت تقريباً في الكوفة، وذلك بسبب تطور حياة البدو في الوقت الحاضر في استعمالاتهم، فاستبدلت «القرب» بالسيارات الحوضية، وتعبدت أكثر طرقهم التي تصلهم بالمدينة وأصبحت جميع المدن في متناول أيديهم، وتطورهم أيضاً من حيث الملابس مما يصعب التمييز بينهم وبين سكان المدينة.

وفي هذا تأثيرٌ مباشرٌ في تخطيط وعمران مدينة الكوفة، فقد استبدلت الساحات الواسعة التي كانت مخصصة لمعاطن الإبل وتجمع البدو -وهي ما تدعى «بالمناخة»- بالعمارات والأسواق العصرية الحديثة وكذلك الصناعات وما تحتاجه تلك الصناعات وبدائلها من أشكال للحوانيت والمحلات التي تحتويها. أضف إلى ذلك أذواق سكان البادية البسيطة التي لا تدخل في ديكورات وأشكال تلك المحلات من أذواق أهل المدينة.

٢- **سكان الريف**: أما أثر سكان الريف على مدينة الكوفة فأكثر من سابقه ولا يزال كذلك. فموقعها على نهر الفرات وإحاطتها بمساحات زراعية واسعة والتي تحتوي على عدة مدن (كالعباسية) والحرية) والعديد من القرى (كأبي شورى والزرقاء والسهيلية) وغيرها -التي تشكل بمجموعها الوحدة الإدارية لقضاء الكوفة- يدعو سكان تلك المناطق الريفية إلى احتياج مدينة الكوفة للتبادل التجاري والذي لا يزال واضح المعالم إلى وقتنا الحاضر. بل وعلى العكس من الأمر الأول فقد ازداد باطراد في أيامنا هذه، فالكوفة تصحو مبكرة لاستقبال أهل الريف والذين من طبيعتهم التبكير بإنزال بضائعهم. وهذا جعل الكوفة سوقاً تجارياً لهذه البضائع -في الصباح الباكر- حتى لسكان مدينة النجف، وما إن يرتفع وضح النهار حتى ترى الأمر معكوساً تماماً فيكاد الهدوء يسود الحركة التجارية للمدينة وبالأخص في المنطقة القريبة للجسر القديم وسوقها القديم، ومن هنا أثر سكان الريف باقتصاديات مدينة الكوفة وبسكانها، ولارتباطهم الوثيق بهم وحاجتهم إليهم أصبحت بينهم علاقات اجتماعية عديدة ومصاهرات. وذلك بدوره أثر بطراز بناء بيوتهم فاهتموا بتخصيص غرفة منعزلة تماماً عن البيت لاستقبال الضيوف، وبصناعاتهم أيضاً وأسواقهم. فترى المنطقة التي تقارب الجسر القديم بصورة خاصة تحتوي على محلات لصناعة أدوات الحراثة والزراعة وتصليح الجرارات الزراعية الحديثة وبيع أدواتها الاحتياطية وبيع البذور والأسمدة الكيمياوية. ومن الطبيعي أن هذا النمط من الصناعات والحرف والأسواق يختلف عن غيره من المحلات والأسواق أيضاً، ومن هنا ولهذين الأمرين جاء تأثير العامل الاجتماعي بتخطيط وعمران مدينة الكوفة.

"مراحل التخطيط الحضري لمدينة الكوفة":

نستطيع أن نقسم مراحل التخطيط الحضري لمدينة الكوفة على أربع مراحل هي:

الأولى: مرحلة النشأة والظهور:

لقد بينا فيما سبق أن العامل العسكري كان العامل الأولى لظهور مدينة الكوفة ونشأتها، وما لبث هذا العامل أن توالت عليه عوامل أخرى حتى انزوى دوره.

وقد نشأت مدينة الكوفة مركزياً حول جامعها الموجود حالياً ومن خلفه قصر الإمارة الأثري ثم مرقد الشهيد مسلم بن عقيل (رضي الله عنه) فكانت تشكل هذه المرحلة الأولى لبناء المدينة ثم امتدت شرقاً نحو النهر وشمالاً بمحاذاته ونحو مسجد السهلة.

وقد أوقف نمو المدينة نحو الشرق موقعها الطبيعي من النهر والأراضي الزراعية التي منعت عبور المدينة إلى الجانب الآخر من النهر وكذلك بمحاذاته نحو الشمال والجنوب.

ولا تزال معالم المدينة العربية القديمة -والتي تختلف عن المدن العالمية الأخرى- شاخصة للعيان في المنطقة الحاذية لنهر الفرات، وبالأخص تلك التي تقع خلف مقام النبي يونس(عليه السلام)- منطقة الرشادية- حيث (الخانات) والدكاكين ببنائها القديم وسقوفها الخشبية أو المنائرية وسعتها وطراز بنائها تحكي لنا قصص بناء السفن ومرافئها وأثر سوقها القديم. وأن طرازه العربي الأصيل المحاذي لشارع النهر الحالي ينبو عن أصالة هذه المدينة وعراقة انتمائها العربي تأسساً وامتداداً. فلو تجولت في هذه المنطقة من المدينة بشوارعها الضيقة وغير المستقيمة فكأنك تعود إلى قرون خلت، فتلك هي أبواب العديد من دكاكينها وخاناتها على الطراز القديم بأخشابها الكبيرة ومساميرها المرصعة الكبيرة ذات الراس الكبير والبارز والمرتبة ترتيباً هندسياً لا أظن إن أفتقد واحد من هذه المسامير أن تجد له بديلاً في الأسواق. فمن هذه الأبواب ما يفتح نحو الجانبين ومنها ما يفتح نحو الأعلى منزلجاً على سكة خشبية من الجانبين، والتي انقرضت صناعتها هي الأخرى حالياً، ولا تزال بعض المهن والصناعات القديمة تؤكد لنا تلك العراقة والأصالة ففي هذه المنطقة من المدينة هنا مسابك صناعة الدبس من التمر وصناعة القوارب النهرية وأدوات الزراعة البسيطة من محراث ومنجل ومسحاة وغيرها وصناعة نعل الفرس وجلالات الحمير والأسرة والأقفاص من سعف النخيل وما إلى ذلك من صناعات يدوية بسيطة. وتكاد المنطقة أن تكون شبه مهجورة من السكان إذا ما قيست بالمناطق الجديدة الأخرى من المدينة، وإن وجد ساكنون فيها فقد استبدلوا بناء بيوتهم بالبناء الحديث أو الشرقي ولكن مع

هذا فغنىٰ معالم مرحلة النشوء لا تزال ظاهرة فيها. وتقع هذه المنطقة إلى جانب الأيمن لشارع السكة للقادم من شارع النهر. أما الجانب الأيسر لهذا الشارع فقد استبدلت بيوتها إلى البناء الشرقي الحديث أو بعضها غربي البناء، كونها أكثر سكناً من الجانب الأيمن ولكن ضيق وعدم انتظام شوارعها ومعالم بعض دكاكينها والبيوت المهجورة وحمامها القديم والمسقوف منائرياً دعاني أن أضعها ضمن المرحلة الأولى -مرحلة النشاة والظهور- لأعبر بعدها شارع وساحة (حبيب الرعاش) فادخل منطقة الجمهورية والقريشات الأولى فاتبين شوارعها وبيوتها وبناءها فاجد أن هذه المنطقة تنقلني تماماً من المرحلة الأولى إلى مرحلة ثانية غيرها.

الثانية: مرحلة النمو:

عندما ازداد عدد سكان مدينة لكوفة واندرست معالم بيوتها القديمة واستقرت أكثر حياة البدو وهاجر الكثير من أبناء الريف إلى المدن فقد شملت الكوفة -كغيرها من المدن- الزيادة السكانية ولمركزها الديني واعتدال مناخها وموقعها من النهر وبالقرب من الأراضي الزراعية، كل هذه العوامل تدعو أن تكون الزيادة السكانية في الكوفة -وخاصة من أبناء الريف- أكثر من غيرها من المدن.

ومن الطبيعي جداً أن تتوسع المدينة تبعاً لهذه الزيادة لحاجتهم إلى بيوت وأسواق وخدمات أخرى. ولما كانت الكوفة محاطة من بعض جوانبها بمناطق زراعية مغروسة وماهولة لا يمكن التوسع على حسابها خاصة وإن أصحاب تلك الأراضي الزراعية قد توارثوها أبا عن جد وأنهم يتشبثون بها لأنها تمثل أصالتهم وعراقتهم. الأمر الذي دعا التوسع أن يكون نحو الاتجاهين الغربي والشمالي الغربي، ولم يكن توسعها دائرياً حول مركزها كما هو طبيعياً في المدن الأخرى وإنما توسعت طولياً.

فبدأت مرحلة النمو حيث الشوارع العريضة والمستقيمة والطراز الشرقي في بناء البيوت المعروف بترك ساحة وسطى في باحة البيت (الحوش) وإحاطتها بمتطلبات البيت الأخرى من غرف وغيرها وتكون أبواب كل هذه المتطلبات نحو ساحة البيت، وتكون شبابيكها صغيرة -لا تتجاوز البابين أو الثلاثة- والاهتمام واضح جداً في كل بيت من بيوتها بغرفة الضيوف المنعزلة وما تحتاجه من مرافق لخدمة الضيف دعت إلى ذلك الأعراف والتقاليد العربية التي لا تستطع هذه المدينة أن تنفك منها لأنها تعبر عن عروبة أبنائها وتمسكهم بذلك حتى على حساب راحة أفراد العائلة.

وتتكون هذه المنطقة من قسم من منطقة الرشادية المرحلة الأولى التي تحولت إلى المرحلة الثانية والجمهورية ومنطقة القريشات الأولى بدءاً من شارع (حبيب الرعاش) وانتهاءً بشارع مسجد السهلة أو جامع الكوفة من الجهة الأخر.

ويكاد يكون سكان هذه المنطقة من سكان الكوفة الأصليين والذين يكون أكثرهم متجانسين من حيث درجة القرابة والمعرفة -ولو أن الكثير منهم حالياً قد هجر هذه المنطقة منتقلاً إلى المناطق الجديدة- وتسمى هذه المنطقة مجتمعة عند الكثير من الناس (بالجديدة) أو (الولاية).

ويتخلل بيوت هذه المنطقة حالياً بعض البيوت التي جدد أهلها بناءَها على الطراز الغربي ولكنها قليلة. وإذا تخطيت هذه المرحلة وعبرت الشارع المؤدي إلى مسجد السهلة فإنك ستدخل مرحلة ثالثة من الطراز في الكوفة.

الثالثة: مرحلة النضج:

عند تطور وسائط النقل من العربات إلى السيارات وتوسعها خاصة بين النجف والكوفة، وما دام جسر الكوفة القديم هو الجسر الوحيد الذي يربط جانبي نهر الفرات في هذه المنطقة، فقد أصبح للكوفة دورٌ بارزٌ كونها تشكل حلقة الوصل بين النجف وباقي مدن العراق الشمالية -وقد بينا ذلك سابقاً- ولأهمية مدينة النجف الدينية والتي ساعدت على بقاء مدينة الكوفة حية متحركة بدلاً من أن تصبح منغلقة على نفسها. فقد فتح الشارع المؤدي إلى النجف ليقسم الكوفة على قسمين، ومن أجل تقديم الخدمات إلى المسافرين الوافدين إلى المدينتين دعا سكان الكوفة والنجف إلى اتخاذ جانبي الشارع لسكناهم ومن هنا بدأت المرحلة الثالثة لتخطيط مدينة الكوفة الحضري. فبني حي كندة على جانبي شارع كوفة- نجف، وحي المعلمين على الجانب الشمالي للشارع. وهنا عبرت المدينة شارع السهلة وجامع الكوفة لتمتد نحو مدينة النجف بدءاً من مرقد الصحابي -(ميثم بن يحيى التمار(رضي الله عنه) إلى (كري سعدة) وامتازت بيوت هذه المنطقة بكبر مساحاتها - من ٤٠٠ إلى ٦٠٠ متر مربع - وبنائها الغربي، حيث تركت مساحة واسعة أمام البيت وعلى جانبيه ومن خلفه وجندتها كحديقة منزلية واقتصر البناء على وسط هذه المساحة وكان مغلقاً كله، واحتوى على شبابيك كبيرة للإضاءة من الخارج.. وفتحت هذه المرحلة آفاقاً جديدة للمدينة لإحياء جديدة تتكون وراءها لتنتقل المدينة بتخطيطها الحضري إلى المرحلة التي تليها تبعاً لتطورات الحياة العامة للسكان.

الرابعة: مرحلة الاكتمال:

وهذه المرحلة الأخيرة من مراحل تطور مدينة الكوفة الحضري، وقد بدأت في عقد الثمانين من القرن العشرين الميلادي وما بعده، عندما بدأت الدولة توزع قطع الأراضي وبتخطيط مسبق لها على المواطنين.

فجاءت الأحياء الجديدة من الغرب والشمال الغربي والجنوب الغربي، فبني حي ١٧ تموز على امتداد المرحلة الثالثة

باتجاه النجف وعلى الجهة اليسرى لشارع كوفة -نجف للقادم إلى النجف، ثم حي الشرطة فالمتنبي والحي العسكري على الجهة اليمنى للشارع ذاته. ثم وزع حي الجامعة باتجاه مسجد السهلة حتى توقف نهاية الحدود البلدية لمدينة الكوفة، حتى اضطر التوسع بلدية النجف -باعتبارها مركز المحافظة- أن تضيف مساحة من حدود مدينة النجف إلى بلدية الكوفة، فوزع حي ميسان.

وقد امتازت أحياء هذه المرحلة بالتشابه الكبير في تخطيطها الهندسي، فتوسطت شوارعها بين شوارع المرحلة الأولى الضيقة والغير مستقيمة وشوارع المرحلة الثانية العريضة والمستقيمة والممتدة إلى النهاية، فقد لا يتجاوز عرض الشارع في بعض هذه الأحياء الثمانية أمتار ثم تستقيم حيناً منقطعة في أكثر الأحيان ولا تمتد إلى النهاية وخاصة في حي المتنبي وميسان. أما بيوتها فطراز بنائها غربي حيث تركت في مقدمها مساحة الحديقة المنزلية وتترك خلفها مساحة صغيرة لدخول الضوء، وتتقارب مساحات هذه البيوت في هذه الأحياء فهي تتراوح بين ٢٠٠ و٢٣٠ متر مربع، عدا حي الشرطة وحي الجامعة فإنها تتراوح بين (٣٠٠ إلى ٣٥٠ متر مربع) لأنها وزعت على طبقات اجتماعية أرقى من غيرها.

وقد تطور بناء بعض البيوت الآن في مناطق المراحل الأربعة وحسب تطورات البناء تبعاً للحالة الاقتصادية لصاحب البيت فترى ملامح البناء الجديد (دبل فاليوم) واضحة هنا أو هناك.

وفي المرحلة الرابعة هذه انقفلت مساحة مدينة الكوفة المخطط لها إدارياً من التوسع حالياً إلا أن تضاف إليها مساحات أخرى من غيرها من المدن المحيطة بها أو يكون التوسع على حساب الأراضي الزراعية التابعة لها.

* * *

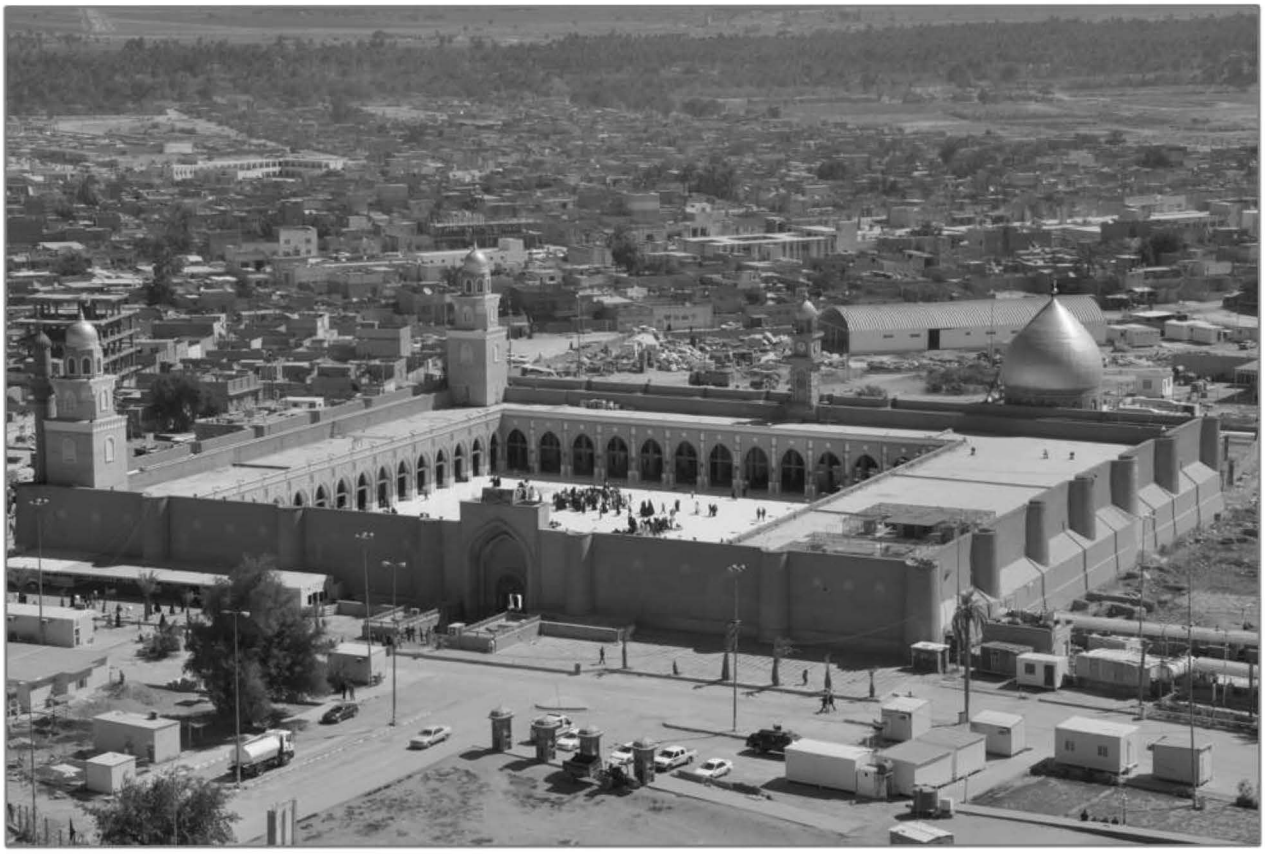

صورة جوية لمسجد الكوفة المعظم